

الحارث المحاسبي

(توفى عام ٢٤٣هـ)

الصوفي المربي :

هو ”أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي“، البصرى المولد، البغدادي الإقامة والوفاة، أحد الزهاد المتكلمين في العبادة والهدى والمواظ، وقد لقب بالمحاسبي من كثرة محاسبته نفسه، وامثاله لقوله - سبحانه وتعالى- في سورة الإسراء: ﴿ أَقْرَأُ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝ ﴾، لم يتعرف أحد على تاريخ مولده مع الأسف، لكن وفاته كانت ببغداد سنة ٢٤٣هـ (أبو غدة، ص ١٦) .

وكان المناخ المحيط بنشأة المحاسبي، وخاصة في بغداد، يموج بالمنازعات الفكرية والمطارات الكلامية، حيث كان « المعتزلة » يعيشون أزهى عصورهم .

وقد اتسمت حياته بالكثير من مظاهر الفقر، على الرغم من أنه كان في أوائل حياته مترفاً، ثم أثر الزهد والتقشف، وأصبح يتسم بذلك، حيث عرف عنه أن الورع والتقوى كانا يملآن قلبه بالخوف من الله سبحانه، وكان تلميذه ”الجنيد“ يؤكد أن المحاسبي كان يلزم نفسه بقلة الطعام إلى حد الجوع، مما دفع البعض أحياناً أن يقدم له مأكلاً، لكنه كان يأبى (أحمد ضياء الدين، ص ١١) .

وكانت له في التأليف أحوال غريبة، فقد روى تلميذه ”الجنيد“ أن ”المحاسبي“ كان أحياناً يجيئ إلى منزله، ويطلب منه أن يسير معه إلى الخلاء، حيث الصحراء الواسعة، ويطلب منه أن يسأله عما يعن له من أفكار ومشكلات وقضايا، ويكون الموقف صعباً بالنسبة إلى ”الجنيد“ في بدايته، ثم يفيض الله عليه ببعض ظواهر شوق إلى المعرفة فتخرج منه أسئلة كثيرة يجيب ”المحاسبي“ عنها، فإذا عاد إلى منزله، أخذ يدون الصفحات عما أجاب به تلميذه !!

وهذا يعنى أن بعض ما كان ”المحاسبي“ يكتبه ويفكر فيه، إنما هو مما يشغل عقول آخرين

من طلاب المعرفة، وهو نهج رائع حقاً، بحيث لا تبدو أفكار العالم أو المفكر مجرد نبت لخاص عقله هو .

واجتهد ” المحاسبى “ كثيراً فى الكتابة عن أحوال النفس، وكيفية تطهيرها، والكشف عن عيوبها، وما ينبغى لنا أن نفعله لتزكيتها، وكان عهده يزخر بالاشتغال بالحديث النبوى الشريف؛ رواية وحفظاً وكتابة وارتجالاً فى طلبه وتحصيله، بيد أن هؤلاء المحدثين كانت لهم مواقف حادة تجاه من يُعمل فكره دراسة وبحثاً فى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، مؤثرين الالتزام برواية النصوص كما هى، من حيث المتن والسند، وكان هذا منفذاً هبت منه على ” المحاسبى “ رياح نقد شديد، حيث إنه لم يكن على هذا النهج، وإنما كان الرجل حريصاً على أن يستثمر هذه الدرّة التى وهبها الله للإنسان ألا وهى العقل، من خلال عملياته المختلفة (أبو غدة، ص ١٨).

ومما نقله أبو غدة (ص ٢٢) عن إسماعيل بن إسحاق السراج، قال: ” قال لى أحمد ابن حنبل يوماً : يبلغنى أن الحارث - يعنى المحاسبى - يُكثر الكونَ عندك، فلو أحضرته منزلك، وأجلستنى من حيث لا يرانى فأسمع كلامه ؟ فقلت : السمع والطاعة لك يا أبا عبد الله، وسرنى هذا الابتداء من أبى عبد الله، فقصدت الحارث وسألته أن يحضرنا تلك الليلة، فقلت : وتساءل أصحابك أن يحضروا معك، فقال : يا إسماعيل فيهم كثرة، فلا تزدهم على الكُسب - عصارة الدهن - والتمر، وأكثر منهما ما استطعت، ففعلت ما أمرنى به .

وانصرفت إلى أبى عبد الله فأخبرته، فحضر بعد المغرب، وصعد غرفة فى الدار، فاجتهد فى رده إلى أن فرغ، وحضر الحارث وأصحابه فأكلوا، ثم قاموا لصلاة العتمة - العشاء - ولم يصلوا بعدها، وقعدوا بين يدى الحارث، وهم سكوت لا ينطق واحد منهم إلى قريب من نصف الليل، فابتدأ واحد منهم وسأل الحارث عن مسألة، فأخذ فى الكلام، وأصحابه يستمعون كأن على رءوسهم الطير، فمنهم من بكى، ومنهم من يزقق، وهو فى كلامه (أبو غدة، ص ٢٣).

فصعدت الغرفة لأتعرّف حال أبى عبد الله - أحمد بن حنبل - فوجدته قد بكى حتى

عُشى عليه، فانصرفت إليهم، ولم تزل تلك حالهم حتى أصبحوا، فقاموا وتفرقوا، فصعدت إلى أبي عبد الله وهو متغير الحال، فقلت: كيف رأيت هؤلاء يا أبا عبد الله؟ فقال: ما أعلم أنى رأيت مثل هؤلاء القوم، ولا سمعت فى علم الحقائق مثل كلام هذا الرجل، وعلى ما وقفت من أحوالهم فإنى لا أرى لك صحبتهم، ثم قام وخرج“ .

وقد استوقفت العبارة الأخيرة البعض، على فرض صحة الرواية - حيث هناك من يشكك فيها - وراحوا فى تفسيرها اتجاهات متعددة، كان الغالب فيها أن الإمام أحمد كره الحديث فى بعض المسائل الخاصة بعلم الكلام، لكن المسلك التبعدى للمحاسبى كان أمراً مختلفاً استحق معه التقدير. وفضلاً عن ذلك فقد أخذ على ”المحاسبى“ تضمن بعض كتاباته أحاديث ضعيفة، وبعض الموضوعة (أبو غدة، ص ٢٥).

وعلى أية حال، فأبو غدة يؤكد (ص ٢٦) أن المحاسبى كان له نهج حسن طيب، وهو أن تصوفه الذى دوّنه فى كتبه راعى فيه ما جاء فى الكتاب والسنة، وأقوال الصحابة وأعمالهم بحسب علمه وفهمه، ولم يعثر أحد فى كتبه على شطحات أو شىء من التصوف الفلسفى، بل قام تصوفه على الدعوة إلى تصحيح العلم والعمل، ومراقبة الله -تعالى- وتركية النفس وتطهيرها من الأدران، وتقريبها من رضوان الله عز وجل.

وكان المحاسبى من الرعيل الأول من الصوفية الصادقين، حيث كان التصوف حقاً تربية علمية للعقول، وعملية للنفوس، وعلاجاً لأمراض القلوب، وغرساً للفضائل، واقتلاعاً للردائل، وقمعاً للشهوات، وتدريباً على الصبر والرضا والطاعات (مقدمة محمد حسنين مخلوف لرسالة المسترشدين، ص ٨).

كذلك فإن التصوف، فى عهده الأولى، كان مجاهدة للنفوس ومكابدة لنزعاتها، ومحاسبة دقيقة لها على ما اكتسبته من أعمال، وحفظاً للقلوب عن الهواجس والخطرات التى قد يوسوس بها الشيطان، وانقطاعاً عما يعوق السالك فى سيره إلى الله، وزهداً فى كل ما يلهى عن ذكر الله ويعلق بالقلوب سواه.

وقد تجلت هذه المعانى ذات الدلالة الطيبة، لدى الرعيل الأول من أهل التصوف العلماء

الناسكين العارفين بالله، القائمين على حدوده، المتمسكين بشريعته، أمثال أبي سعيد الحسن البصرى المتوفى سنة (١١٠هـ)، وأبى إسحاق إبراهيم بن أدهم البلخى المتوفى سنة (١١٦هـ)، وأبى سليمان داود بن نصير الطائى المتوفى سنة (١٦٥هـ)، وكذلك أمثال أبى نصر بشر بن الحارث الحافى المروزي، ثم البغدادى المتوفى سنة (٢٢٧هـ)، وأبى القاسم الجنيد البغدادى، المتوفى سنة (٢٩٧هـ)، وأبى سهل بن عبد الله التستري، المتوفى سنة (٢٨٣هـ)، وأمثالهم (مقدمة مخلوف، ص ١٠).

مكانة العقل :

قد يكون غريباً بعض الشيء، ونحن أمام مربٍ نهجٌ نهجاً صوفياً، أن نسعى إلى التوقف عند رأيه في العقل، حيث يتبادر إلى الذهن على الفور ما يرتبط به العقل من منطوق وأدلة عقلية وبراهين منطقية ودقة الملاحظة للوقائع، والقدرة على الاستنباط، وما يسير على هذا النحو، لكننا نذكر القارئ بأمرين، أولهما: ما قال به البعض من اهتمام للمحاسبى ببعض قضايا علم الكلام، مما دفع البعض من الفقهاء، عبر عصور مختلفة في الحضارة الإسلامية، إلى النظر إليه بقدرٍ من عدم الرضا، وعلم الكلام، يُعَوَّل كثيراً على العقل. الأمر الثانى: أن المحاسبى، كما قلنا، كان يعيش في العهود الأولى للتصوف حيث لم تعلق به بعد ملوثات أخرى من تأثر بمذاهب وعقائد وفلسفات أخرى، فضلاً عما شاب ”الطرق“ من بعض ممارسات ليست كلها طيبة .

وللمحاسبى كتابان، أحدهما بعنوان (شرف العقل وماهيته)، والآخر بعنوان (العقل وفهم القرآن)، نستدل منهما على موقفه من قضية العقل .

فهو يرى أن هناك ثلاثة معانٍ للعقل، أولها بمعنى الغريزة، والثانى بمعنى الفهم لإصابة المعنى، والأخير: بمعنى البصيرة والمعرفة .

وفهم من القول بأن العقل هو الغريزة، ما يسميه بعض المحدثين (الفهم المشترك العام)، على اعتبار أن الفطرة البشرية تشير للإنسان بعدد من الأمور التي لا يحتاج للوقوف عليها

إلى اصطناع منهج رياضي أو علمي، ومن هنا يشترك فيه الكثرة الغالبة من الناس، ووفقاً له أقام المولى -عز وجل- الحجة على من خلق (العقل وفهم القرآن، ص ٢٠١) .

ومن أمثلة هذا المستوى من العقل ما تشير إليه الجوارح من معلومات تتصل بما تقع عليه، على فرض سلامتها، وقدرة على التمييز بين أمور تؤدي بالضرورة إلى الهلكة، وأخرى تؤدي بالضرورة إلى السلامة، والربط بين بعض الأمور وفهم بعض الدلالات من وقائع وأحداث، حتى إننا نرى بعض عامة الناس، عندما يفسر أمراً أو يحكم على شيء، نجده يقول بالعامية: "ما هو بالعقل كده ...؟! "

ولعل هذا ما قد يكون معنياً بالأسماء التي قال - سبحانه وتعالى- في سورة البقرة أنه علمها لآدم: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ قَالَ لَوْ سُبْحَنَّكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ ، حيث تفيد هذه الآيات الكريمة اختصاص الإنسان وحده بهذه القدرة .

ومن حيث كل من المعنى الثاني، أي الفهم لإصابة المعنى، والثالث، والذي هو الفهم والبصيرة، فهما متقاربان، فمن حيث المعنى الثاني نجد أن الله -عز وجل- قد أرسل الرسل والكتب، وتوجيهات أساسية لا بد منها، مما أوجب أن يتوافر للإنسان قوة يمكن أن يدرك بها كل هذا، وبناء على ذلك يمكن أن تتم المحاسبة، سلباً أو إيجاباً، ولذلك نجد سبحانه يقول في سورة الأنفال: ﴿ ... لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنِنَا وَيُحْيِي مَنْ حَيَّ عَن بَيْنِنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

والبينة المشار إليها في الآية الكريمة هي ما يتصل بفهم العقل ما ألقى إليه من وعد ووعد، وفي كل ما يتصل بالدنيا والآخرة (العقل والفهم، ص ٢٠٦) .

والفهم على هذا هو الظاهرة العقلية التي تؤدي إلى الوعي بالمعنى من جانب، ثم مهارة

التعبير عما وعاه من معنى في صورة "بيانية"، حيث إن الله خلق الإنسان وعلمه البيان (أحمد ضياء الدين، ص ١٣٩).

أما هؤلاء الذين يعجزون عن التوصل إلى ما يستفاد من التوجيهات الإلهية والنبوية، سواء ما يتصل بالدنيا أو الآخرة، أو يفهمون بصورة غير صحيحة، وخاصة إذا كان التعمد واضحاً، فهؤلاء يقول عنهم - سبحانه وتعالى - في سورة البقرة: ﴿يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

وبالنسبة إلى معنى العقل بأنه البصيرة والمعرفة، فهو، فيما يبدو، أرقى مستوى وأعز منزلة، حيث يتعلق بتعظيم قدر الأشياء النافعة والضارة في الدنيا والآخرة (العقل وفهم القرآن، ص ٢١٠).

ووظيفة العقل هنا أن ينفذ إلى ما وراء الأشياء حتى يقف على دلالاتها الربانية، فضلاً عن مضامينها الأخلاقية (أحمد ضياء الدين، ص ١٣٩).

والعقل، في هذه المرتبة، قَمِنَ بأن يوصل الإنسان إلى الله - سبحانه وتعالى-، من حيث القدرة التي لا حدود لها، كلما تأمل بخالص عقله جوانب متعددة من الكون وآيات الله، ومن هنا يجيء قوله - سبحانه وتعالى- ناعياً على فريق من الناس، على الرغم من منحهم نعمة التعقل إلا أنهم لا يستخدمونها على الطريق الصحيح، فقال في سورة الحج: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.

وفي رسالة المسترشدين (ص ٩٨) يؤكد المحاسبى على أنه "ما تزين أحد بزينة كالعقل ولا لبس ثوباً أجمل من العلم؛ لأنه ما عرف الله إلا بالعقل، ولا أطيع إلا بالعلم"، ونفهم من هذا النص أيضاً تفضيلاً من المحاسبى للعقل على العلم، وهو الأقرب إلى الصحيح، وإن كان هناك من أدار حواراً طريفاً بين العقل والعلم، ليبين على لسان كل منهما فضله على الآخر، فقال على لسانهما (رسالة المسترشدين، ص ٩٩):

علمُ العليم وعقلُ العاقل اختلفا من ذا الذي قد أحرز الشرفا
فالعلم قال : أنا أحرزت غايته والعقل قال : أنا الرحمن بى عُرفا
فأفصح العلمُ إفصاحًا وقال له بأيّنا الله فى فرقانه اتصففا ؟
فبان للعقل أن العلم سيده فقَبِلَ العقلُ رأسَ العلم وانصرفا

ولم ينتبه القائل بهذا إلى أن العقل هو فى الحقيقة منبع العلم وأصله، وأن العلم يجرى من العقل مجرى النور من الشمس والرؤية من العين، وقد أكد الحارث المحاسبى على هذا، ومن هنا كتب يقول: ”مثل العقل مثل البصر، ومثل العلم مثل السراج، فمن لا بصر له، لا ينتفع بالسراج، ومن له بصر بلا سراج لا يرى ما يحتاج إليه“ (هامش رسالة المسترشدين، ص ٩٩).

التعليم والعلم:

أهداف التعليم: القضية الأولى فى هذا الشأن، أن يحدد المربى أولاً ما يراه من حيث الهدف من التعليم ومقاصده، فهذا هو الذى يحدد مكانة التعليم والدور الذى يمكن أن يقوم به، ومنهم العلماء والمعلمون المكلفون، بتحقيق مثل هذا الهدف أو الأهداف.

وواضح أن المحاسبى، بحكم أمور كثيرة تشهد على ذلك، يركز على الهدف الدينى، بكل ما يمكن أن يتفرع عنه من أهداف أخرى، والتعبير عن الهدف الدينى يتمثل فى القول بأن يحقق المتعلم العبودية لله - سبحانه وتعالى-، ومن هنا ألح المحاسبى على ضرورة التزام الطاعة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم، من قبل المتعلم، والإيمان وتوطيد الصلة بالخالق عز وجل، حيث يفرض هذا على المتعلم أن يلتزم بالتقوى والورع، وأن يحافظ على المحاسبة المستمرة للنفس .

ويظهر لنا مغزى هذا عندما يسأل متعلم شيخه المحاسبى عما يأمره ابتداء على طريق التعلم، فكان جوابه: ”أن تعلم أنك مربوب، فإذا علمت أنك عبد مربوب، ثم عقلت: لم

خلقت، فإذا علمت ذلك علمت أنه لا نجاة للمربوب المتعبد إلا بطاعة الله ربه ومولاه، وأن الدليل على طاعة الله ربه ومولاه عز وجل، العلم، ثم العمل بأمره ونهيه، في مواضعه وعلله وأسبابه، ولن تجد ذلك إلا من كتاب الله وسنة نبيه، صلى الله عليه وسلم، لأن الطاعة هي سبيل النجاة، والعلم هو الدليل على السبيل، فأصل الطاعة: الورع، وأصل الورع: التقوى، وأصل التقوى: محاسبة النفس، وأصل محاسبة النفس: الخوف والرجاء“ (الرعاية لحقوق الله، ص ٤٧).

ويتفق مع المحاسبى الجمهرة الكبرى من المربين المسلمين، كما يلمس القارئ لدى من تناولنا فكرهم وآراءهم فى الكتاب الحالى، ونجد لدى واحد من لم يسعدنا الحظ فى تناولهم، مثل ابن القيم، يكتب فى (إعلام الموقعين، ٢: ١٥٧-١٥٨) أن الله - سبحانه وتعالى - أوجب على كل أحد عبودية بحسب مرتبته، وهناك العبودية العامة التى سوى بين عباده فيها:

فعلى العالم من عبودية: نشر السنة والعلم، الذى بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم، ما ليس على الجاهل، وعليه عبودية الصبر على ذلك ما ليس على غيره .

وعلى الحاكم من عبودية، إقامة الحق وتنفيذه وإلزامه من هو عليه به والصبر على ذلك والجهاد عليه، ما ليس على المفتى .

وعلى الغنى من عبودية، أداء الحقوق التى فى ماله، ما ليس على الفقير .

وعلى القادر على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بيده ولسانه، ما ليس على العاجز فيهما.

وفى القلب من الهدف الدينى من التعليم، تقف الفضائل الخلقية، حيث تعتبر أساساً جوهرياً فى العقيدة، وقد برز هذا الهدف، بالإضافة إلى أخلاقية العقيدة الإسلامية، بفعل ما بدأ المسلمون يعرفون الطريق إليه من بعض المفاصد، فى العصر العباسى، ومن هنا فقد كتب المحاسبى يشير إلى أنه تدبر جملة الأحوال التى أحاطت بالناس فى زمنه، فأدرك صعوبة هذا الزمان الذى تبدلت فيه جوانب الإيمان لدى شرائح من الناس، وبدأ صوت الباطل يعلو على صوت الحق، وشيوع بعض الفتن، واتساع دائرة الواقعيين فى أسر الهوى، وانتشار صور الرياء، فكان من واجبه أن يقرع الأجراس تحذيراً وتنبهياً، ويشدد على ضرورة التزام خلق الورع،

والابتعاد عن الحرام، والجنوح نحو الزهد والتقشف، والملاحظة الدقيقة لأفعال الجوارح حتى لا يقع فعلها في دائرة ما يغضب المولى عز وجل .

كذلك كتب المحاسبي في "رسالة المسترشدين" مخاطباً المتعلم: "واعلم أن فريضة كتاب الله : العمل بحكمه من الأمر والنهي، والخوف والرجاء لوعده ووعيده، والإيمان بمتشابهه، والاعتبار بقصصه وأمثاله، فإذا أتيت بذلك فقد خرجت من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن عذاب الشك إلى روح اليقين ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاءُ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾".

هل من ضرورة للمعلم؟ ولقد عقب الدكتور أبو غدة على كلام المحاسبي بأنه يفيد أن أمر الاهتداء إلى الله وصلاح النفس وتركيتها لا يتوقف على التزام (شيخ وبيعة)، وإنما يتوقف على التزام العلم والعمل الذي أمر الله به، وتضمنه الكتاب والسنة وسلوك سلف الأمة (هامش رسالة المسترشدين، ص ٣٨).

وهو يستند في ذلك إلى أن أي إنسان مسترشد عملاً بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخلفاء الراشدين والسلف الصالح، فقد سلك طريق الهدى، وتوجه إلى الله - تعالى - راشداً مهدياً، إذ القرآن والسنة في ذاتهما هاديان إلى الله، ومزكيان للروح والنفس أيما تزكية .

والحق أن من الصعب قبول هذا التفسير على الرغم مما نحمله لشيخنا أبو غدة من تقدير عالٍ بحكم ما عليه الرجل من عمق تفكير وصواب تفكير، وجهود دائبة رائعة في خدمة الموروث الفكري الإسلامي، إذ لا مناقشة بطبيعة الحال في أن الاهتداء بكتاب الله وسنة نبيه يوفر للإنسان أقصى ما يطمح إليه من الهدى وبيان الطريق المستقيم، لكن هذا لا يمنع من ضرورة وجود "شيخ" أو معلم يأخذ بيد المتعلم، ليرشده إلى مواضع الاستفادة، والأنبياء والرسول أنفسهم هم مثلنا في القيام بمسئولية التعليم والإرشاد، وفي القرآن الكريم آيات تبين أن المولى - عز وجل - أرسل الرسل والأنبياء ليعلموا الناس ويزكواهم، وكل منا مطالب بأن يقتدى برسول الله وأنبيائه فيما كانوا يفعلون، ومنه إرشاد الناس وتعليمهم وتربيتهم .

أنواع العلوم: وترتب على هذا المنظور لهدف التربية ومقصد التعليم أن يرى المحاسبي العلم قد انقسم إلى ثلاثة أقسام (أحمد ضياء الدين، ص ١٢٦) :

أولاً - علم أحكام الدنيا، وهو ما يتعلق بالسعى لمعرفة الحلال والحرام، ونحن نسعى فى الأرض عاملين نشيطين، ويسمى البعض هذا العلم بعلم الظاهر، وتعلم هذا العلم يعتبر فرض كفاية، إذا قام به البعض، سقط عن الآخرين .

ثانياً - علم أحكام الآخرة، وهو يعتبر المقابل لعلم أحكام الدنيا، ولذلك سماه كثيرون ”علم الباطن“ ، ويتصل هذا العلم بالعبادات القلبية التى تتضمن الخوف والورع والتقوى والهدى وغيرها، وهذا العلم يعد فرض عين، من الضرورى على كل مسلم أن يتعلمه .

ثالثاً - العلم بالله عز وجل، وهو يتصل بما يخص المولى -سبحانه- وتعالى وحده، مثل الخلق والتدبير، وقد لا يستطيعه إلا القلة من العلماء الذين يهبهم الله من الورع ودقة النظر وعمق الإيمان ما يتيح لهم أن يخوضوا غماره، على الرغم من أنه بحر من العسير إدراك أغواره. ويعد هذا العلم هو أرقى وأعظم العلوم .

من الأساليب التربوية :

هى قضية لا يستطيع مربب أن يغفل عنها، من حيث إنها تشكل ”الوسائل“ التى عن طريقها يمكن أن ننقل أطرافاً من المعرفة إلى المتعلمين، بأيسر السبل، ووفق أجود الطرق، مما يساعد على ترسيخ المعارف وتوظيفها فيما هو مفيد ونافع سواء للمتعلم نفسه أو للأمة.

ولعل أبرز الوسائل التى تناولها المحاسبي هى :

التربية بالترغيب، حيث تقوم على مسلمة بشرية تذهب إلى أن الإنسان بطبيعته يقبل على نما يشبع احتياجاته، ويسبب لديه مشاعر السرور والبهجة أو اللذة، ومن هنا عرفت التربية الإسلامية ما يسمى التربية بالترغيب، أى استثمار ما يشعر به المتعلم من رغبات وميول فى تعلم هذا أو ذاك . والتربية بالترغيب نفسها تعتمد على عدة سبل، نذكر منها : التوبة، ويقصد

بها الشعور بالندم على ما تم اقتراه من أخطاء، وعقد العزم على الرجوع إلى طريق الحق والفضيلة (رسالة المسترشدين، ص ١١٢).

وكان طبيعياً أن يستشهد المحاسبى ببعض آيات القرآن الكريم التي يحث فيها المولى - سبحانه وتعالى - على التوبة، ترغيباً للناس، في ترك السبل الضارة والإقبال على السبل الخيرة والمسالك الفاضلة، كما في قوله في سورة التحريم: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٢﴾

ومن سبل الترغيب أيضاً: الصدق، والذي عنى به المحاسبى بتطابق ما ينطق اللسان به وما يكون بقلبه وضميره، وهو الأمر العكسى بالنسبة إلى المنافقين الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، ومن هنا كانت نصيحة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وترغيبه المسلمين في قيمة الصدق بأن يؤكد على أنه طريق إلى اكتساب رضا المولى - عز وجل - فقال: "عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً". صحيح مسلم .

وعلامة ذلك فى الصادق، وفقاً لما كتبه المحاسبى (رسالة المسترشدين، ص ١٠٢):

إذا نظر اعتبر، وإذا صمت تفكر، وإذا تكلم ذكر، وإذا منع صبر، وإذا أعطى شكر، وإذا ابتلى استرجع، وإذا جهل عليه حلم، وإذا علم تواضع، وإذا علم وفق، وإذا سئل بذل .

كذلك هناك: الإخلاص، وفق ما قاله - سبحانه وتعالى - في سورة البينة: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴿١٠٢﴾

والعلامة الكبرى للإخلاص، كما يراها المحاسبى، هى أفراد الله - عز وجل - بالعبادة والذكر والتوحيد (رسالة المسترشدين، ص ١٧٢). وهذا يعنى أن أى عمل تربوى لا يقصد به وجه الله فهو لا يعبر عن هذه القيمة، ووجه الترغيب فيها أن الحريص عليها يحظى برضا

الخالق -- سبحانه وتعالى--، وهل هناك جائزة أعلى من ذلك ؟

والمخلص، شعاره الثقة، وحاله المراقبة، ألا ترى قول رسول الله ﷺ: ”عبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك“، صحيح مسلم .

وهو أيضاً لا يتعرض لما لا يعنيه، ولا يتكلف فوق ما يكفيه، ولا يأخذ ما ليس بمحتاج إليه، ولا يدع ما وُكِّل بحفظه . الناس منه فى راحة، وهو من نفسه فى تعب، قد أمات بالورع حرصه، وحسم بالتقى طمعه، وأفنى بنور العلم شهواته (رسالة المسترشدين، ص ١٠٦).

أما التقوى، فهى درة الوسائل، حقاً، والتمسك بها يستطيع أن يضمن إلى حد كبير الالتزام بسواء السبيل، وتجنب سوء المآل، فهى سياج يقى الإنسان احتمالات الزلل، على أن تتربط مع غيرها من وسائل، مثل الإخلاص، والصدق .

وفى هذا قال - سبحانه وتعالى- فى سورة النحل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ ، وقال فى سورة الطلاق: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۗ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ... ﴾ .

وفى هذا كتب المحاسبى فى رسالة المسترشدين (ص ٤٦) يقول: ”والزم تقوى الله، كما قال ﷺ ”المسلم: من سلم الناس من يده ولسانه، والمؤمن: من أمن الناس بوائقه“ (جمع بائقة وهى الشر والمصيبة)، رواه أحمد والترمذى والنسائى . أما أبو بكر الصديق-رضى الله عنه- فقد قال: اتق الله بطاعته، وأطع الله بتقواه، ولتخف يدك من دماء المسلمين، وبطنك من أموالهم، ولسانك من أعراضهم“ .

ومنها: مصاحبة أهل الورع، ولهذا يؤكد المحاسبى على ضرورة هذا النوع من المصاحبة، فمن شأنه أن يغرس حب الخير لدى المتعلم، من كثرة وطول رؤيته وخبرته بمثل هذه النماذج الطيبة، ويؤيد هذا ما رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: ”إن لله ملائكة سائرة يطوفون فى الأرض، فإذا صعدوا إلى السماء سألهم الله تعالى وهو أعلم بهم : من أين جئتم ؟ فيقولون: جئنا من عند عبادك فى الأرض، يسبحونك،

ويُكبرونك، ويهملونك، ويحمدونك، ويسألونك، ويستغفرونك، فيقولون: رب فيهم فلان عبد خطأ، إنما مرّ فجلس معهم فيقول: وله غفرت، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم” (رسالة المسترشدين، ١٠٧).

أما التربية بالترهيب، فيقصد بها استثمار ما جبلت عليه النفس الإنسانية من خوف ورهبة لتوجيه تلك الطاقة إلى الخوف من الوقوع في الرذيلة، وإلى الرهبة من مخالطة رفاق السوء، وما سار على هذا الطريق، ومن هنا نجد التحذير الرباني يجيء بالوعد والوعيد، منبهاً الإنسان ألا يقع في معصية الخالق - سبحانه وتعالى -، ويرتكب ما حذره من الوقوع فيه، ولهذا قال - سبحانه وتعالى - ﴿وَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ﴾.

والطريق إلى إحسان استثمار أسلوب الترهيب، يبدأ بالإلحاح على الإنسان وتذكيره به، إذ يجهل أجله، فلعله يكون حالاً، فيماذا استعد لهذه اللحظة؟ وإذا كان ذكر الموت يشيع في قلب الإنسان رهبة وخوفاً، فمن المهم التذكير به، من حين إلى آخر، وخاصة عندما نلاحظ أن من أمامنا يبدو وكأنه قد نسى هذه الحقيقة .

بل إنه - سبحانه وتعالى - ذكر في آيات عدة مظاهر ومشاهد لأقوام سابقين كانوا أهل عزة ومُلك وجاه ومال، ثم خسف الله بهم وبدارهم الأرض، وهو يروى مثل هذه الروايات والقصص، تذكيراً للإنسان بألا يأمن أن يقع مثل هذا لقومه، إذا كانوا مبتعدين عن طريق الله، مصرين على غيهم، فمن ذلك قوله - تعالى - في سورة مريم: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾.

ومن سبل الترهيب: التحذير من الارتقاء في أحضان الدنيا لطلب التباهي والتفاخر على الغير من الناس، ولذلك عندما سئل المحاسبي عن المحمود والمذموم من الدنيا، قال: ”جملة ذلك كله ما أخذت من الدنيا للدنيا فهي الدنيا المذمومة، وما أخذت من الدنيا للأخرة فهي الدنيا المحمودة“ (أحمد ضياء الدين، ص ١١٠).

ولعل هذا القول للمحاسبي يعني أن طلب الدنيا سعيًا وراء التباهي والتفاخر على جمهرة الناس يمكن أن يلهي الإنسان عن طاعة الله - سبحانه وتعالى -، وبالتالي فقد يقوده هذا إلى

ارتكاب المعاصي، واقتراف الذنوب، ومن هنا يجيء قوله صلى الله عليه وسلم: ”من كانت الدنيا همه، فرق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه، ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيته جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه وأتاه الدنيا وهي راغمة“، صحيح ابن ماجة.

كذلك فإن من أساليب الترهيب التي نبه عليها الحارث المحاسبى: التحذير الشديد من الكبر، والحسد، والغش، وفي ذلك قال صلى الله عليه وسلم: ”الكبر بطر الحق وغمط الناس“، كما جاء في صحيح مسلم، ما يشير إلى أن الكبر يتضمن أمرين، أولهما احتقار الناس والتعالى عليهم، والثاني رد الحق، وهذا وذاك يؤدي بالضرورة إلى الوقوع في الخطأ المستوجب لغضب الله عز وجل، وفي ذلك نقراً قوله - سبحانه وتعالى - في سورة الزمر: ﴿... أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

ومن النظرات الثاقبة للمحاسبى في الآثار السلوكية السيئة للكبر، أنه يعنى أن ينظر إنسان إلى نفسه بأكثر مما تستحق، فيزين له هذا أفعاله وأقواله وكأنها هي الأحسن، ويدفعه هذا أيضاً إلى التقليل مما يفعل غيره ويقول، وقد يكون هو الأفضل مما يصدر عنه هو، ومن هذا وذاك فهو معرض بشدة إلى سلسلة من الأخطاء يمكن أن تلحق به أخطاراً فادحة (أحمد ضياء الدين، ص ١١١).

وإذا كان الحسد يعنى أن يشعر الإنسان بالغم عندما يرى نعمة لدى غيره، فهذا يعنى أن يترك الحاسد المجال للغل أن يأكل قلبه فيمضى أوقاتاً في هم وحزن، ويكتفى باجتراح الآلام النفسية القائمة على غير حق، وهو بهذا يسير عكس ما نصح به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فى قوله: ”لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه - أو لجاره - ما يحب لنفسه“، فيما جاء فى صحيح مسلم .

وقال صلى الله عليه وسلم أيضاً: ”لا تباغضوا ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تقاطعوا...“، صحيح مسلم .

ولعل هذا هو المغزى العظيم لقول المولى - عز وجل - في سورة الفلق: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾، وبهذا نستعيد ما يأتي من شرور الحاسدين.

قيمة الزهد :

السمة الأساسية في التصوف هي الزهد، بل كان الزهد هو نقطة البداية، وهو أمر نسبي إلى حد ما، إذ من الصعب أن يتفق الكثيرون على حد الزهد. وإذا كان الإسلام يجذب الزهد، لكن على شرط أن يكون ذلك بما لا يتعارض ولا يعوق سعى الإنسان للعمل وإعمار الأرض التي تحتاج كدًا ونصبًا وعرقًا، من العسير تحديد معيار للحكم على الزهد، فالحدود الدنيا والعليا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة.

وكان من ميزات ما كان عليه المحاسبي من زهد، هو أنه كان من هذه القلة التي ظلت على تمسكها بروح الإسلام وصحيح الدين، وإن كان بالإمكان أن نقول: إنه قد قسا على نفسه بعض الشيء، وأن ما سار عليه قد لا يستطيعه الكثرة الغالبة من الناس، لكن يظل سلوكه وتظل أقواله في الزهد مثلاً أعلى لا بد للمربي المسلم أن يضعه نصب عينيه، إن لم يكن للتأسي التام به، فأضعف الإيمان أن تكون له منبهاً وحارساً، حتى لا يغرق في مغريات الحياة الدنيا .

وكان مما روى عن أحواله في الزهد، أنه مر وهو صبي بصبيان يلعبون على باب رجل تمار، فوقف الحارث ينظر إلى لعبهم، وخرج صاحب الدار ومعه تمرات، فقال للحارث: كل هذه التمرات، قال الحارث: ما خبرك فيها؟ قال: إني بعث الساعة تمرًا من رجل فسقطت من تمره، فقال: أتعرفه؟ قال: نعم، فالتفت الحارث إلى الصبيان الذين يلعبون وقال: أهذا الشيخ مسلم؟ قالوا: نعم، فمرّ وتركه (أبو غدة، ص ٢٧).

فتبعه التمار حتى قبض عليه، فقال: والله ما تنفلت من يدي حتى تقول لي ما في نفسك مني، فقال: يا شيخ، إن كنت مسلمًا فاطلب صاحب التمرات حتى تتخلص من تباعته.

كما تطلب الماء إذا كنت عطشان شديد العطش . يا شيخ، تطعم أولاد المسلمين السحت
 - أى الحرام - وأنت مسلم ؟ فقال الشيخ : والله لا تجرت للعالم أبداً !!
 كذلك حكى الشيخ الجنيد، وهو تلميذ للمحاسبي فقال : ”كان الحارث كثير الضّر
 - سيعى الحال شديد الفقر - واجتاز بى يوماً وأنا جالس على بابنا، فرأيت على وجهه زيادة
 الضر من الجوع ! فقلت له : يا عم، لو دخلت إلينا نلت من شىء من عندنا ؟ قال : أو تفعل ؟
 قلت : نعم، وتسرنى بذلك وتبرنى .

فدخلت بين يديه ودخل معى، وعمدت إلى بيت عمى سريعاً - وكان أوسع من بيتنا، لا
 يخلو من أطعمة فاخرة، لا يكون مثلها فى بيتنا - فجئت بأنواع كثيرة من الطعام، فوضعت
 بين يديه، فمد يده وأخذ لقمة فرفعها إلى فيه، فرأيته يلوكها ولا يزدرداها - أى لا يستطيع
 بلعها - فوثب وخرج وما كلمنى !

فلما كان من الغد لقيته فقلت : يا عمى، سررتنى، ثم نغصت علىّ ! قال : يا بنى، أما
 الفاقة، فكانت شديدة، وقد اجتهدت فى أن أنال من الطعام الذى قدمته إلىّ، ولكن بينى
 وبين الله علامة : إذا لم يكن الطعام مَرَضِيًّا - بأن كان فيه شبهة - ارتفع إلى أنفى منه زفرة
 فلم تقبله نفسى، فقد رميت تلك اللقمة فى دهليزكم وخرجت ! ” (رسالة المسترشدين،
 مقدمة أبو غدة، ص ٢٨)

محاسبة الذات :

تكاثرت فى السنوات الأخيرة كتابات وبحوث ودراسات تدور كلها حول أهمية المحاسبة
 وضرورتها وأصولها وطرقها ونتائجها على التنمية البشرية والتنمية بصفة عامة، ومع الإقرار
 بهذه المحاسبة الكلية الجماعية، المادية، إلا أن هناك نوعاً آخر من المحاسبة هو مدار عمل
 الإنسان كله، سواء على المستوى الفردى أو الجماعى، ألا وهو محاسبة الذات، ومن أجل
 كان ”الضمير“ وكان ما سُمى فى المصطلح القرآنى ”النفس اللوامة“. وقد سبق لنا أن بينا
 أن مفكرنا لقب بالمحاسبى من كثرة محاسبته لنفسه وشدته فى هذه المحاسبة .

ومن هنا يأتي قول المحاسبى بأن أصل فساد القلب، ترك المحاسبة للنفس ” فإذا أردت صلاح قلبك فقف مع الإرادة وعند الخاطر، فخذ ما كان لله، ودع ما كان لغيره، واستعن على قصر الأمل بدوام ذكر الموت “ (رسالة المسترشدين، ١١٠).

وتأكيداً لهذا علق أبو غدة على كلام المحاسبى مستذكراً أن عمر -رضى الله عنه- كان يقول (هامش ص ١١١): كل يوم يقال: مات فلان وفلان، ولا بد من يوم يقال فيه: مات عمر. كذلك كان على بن أبي طالب يقول: ” ابن آدم إنما أنت أيام، كلما ذهب يوم، ذهب بعضك “، وفي هذا تأكيد على ما سبق أن أشرنا إليه من وسائل الترهيب من التذكير دائماً بحقيقة الموت، فهذا مما له أثره فى الترهيب، سعياً لاستقامة السلوك، وهو كذلك يعد حافزاً قوياً كى يحاسب الإنسان نفسه عما يقول وعما يفعل لحظة بلحظة .

ولكى يقوم الإنسان بمسئولية المحاسبة الذاتية لا بد أن يعرف ما يجب عليه بالنسبة إلى حفظ الجوارح من الخواس السبع، وهى : السمع والبصر واللسان والشم واليدان والرجلان والقلب، الذى ”يؤمره“ المحاسبى عليها جميعاً، حيث به صلاح الجسد وفساده . ولذلك جعل الله على كل جارحة أمراً ونهياً فريضة منه، وجعل بينهما سعة وإباحة تركها فضيلة وإباحة تركها فضيلة للعبد (رسالة المسترشدين، ١١٣).

ثم يتوقف المحاسبى عند كل جارحة، حيث يبدأ بالقلب الذى رأى أن فرضه - بعد الإيمان والتوبة - إخلاص العمل لله، واعتقاد حسن الظن عند الشبهة، والثقة بالله، والخوف من عذابه، والرجاء لفضله .

ومن عجيب ما يذكر هنا أن كل واحد، إذا خفناه هربنا منه، إلا الله - سبحانه وتعالى - فإننا إذا خفناه هربنا إليه، فهو المُخاف منه، والمرجى، فالخائف من الله هارب من ربه إلى ربه، يقول -تعالى- فى سورة (الذاريات): ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

وقد تعددت الرؤى بالنسبة إلى مفهوم القلب، فمن ذلك ما روى من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ” إن من المؤمنين من يلين له قلبى “ رواه الإمام أحمد فى مسنده، كذلك قال عليه الصلاة والسلام: ” إن الحق يأتى وعليه نور، فعليكم بسرائر القلوب “،

حيث لا تتأكد من ثبوت هذا الحديث، وقال ابن مسعود : لقلوب شهوة وإقبال، وفترة وإدبار، فاغتموها عند شهوتها وإقبالها، وذروها عند فترتها وإدبارها (رسالة المسترشدين، ص ١١٤).

لكن، ما العلاقة بين القلب وبقية الجوارح؟ رأى علمنا، عن طريق التشبيه علاقة وثيقة، فالقلب هو البيت، والأبواب هي العينان واللسان والسمع والبصر واليدان والرجلان، فمتى انفتح باب من هذه الأبواب، بغير علم ضاع البيت !

والفرض الذي يقع على مسئولية اللسان، الصدق في الرضا والغضب، وكف الأذى في السر والعلانية، وترك التزديد بالخير والشر، وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ”من ضمن لى ما بين لحييه وما بين رجليه ضمن له الجنة“، أخرجه البخارى فى صحيحه، كذلك قال -صلى الله عليه وسلم- لمعاذ بن جبل : ”وهل يكُّب الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟!“. أخرجه الإمام أحمد، والنسائى، وابن ماجه، والترمذى .

ونُسب إلى رسول الله حديث هو فى الحقيقة، فيما يؤكد أبو غدة (هامش ص ١١٧)، من كلام الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود وفيه يقول: ”أندركم فضول الكلام، حسب أحدكم ما يبلغ به حاجته، فإن الرجل يُسأل عن فضول كلامه كما يُسأل عن فضول ماله“.

أما الفرض الخاص بالبصر، فهو الغض عن المحارم، وترك التطلع فيما حُجب وسُتر، وفى ذلك روى عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قوله: ”النظر سهم من سهام إبليس، فمن تركه من خوف الله آتاه الله إيماناً يجد حلاوته فى قلبه“.

وبالنسبة إلى فرض السمع، فهو تبع للكلام والنظر، فكل ما لا يحل للإنسان الكلام فيه والنظر إليه، فلا يحل له استماعه ولا التلذذ به، والبحث عما كُتم عن الفرد، يُعد صورة من صور التجسس (رسالة المسترشدين، ص ١٢٠).

وهنا نجد المحاسبى يحرم الاستماع إلى الغناء، مستعيناً برأى واحد من التابعين وهو ”القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق“ -رضى الله عنه- الذى قال فيه: إذا ميز الله بين الحق والباطل يوم القيامة، أين يقع الغناء؟ قيل: فى حوز الباطل!

ومن المعروف أن قضية الغناء فيها جدل واختلاف في الرأي، بين محرم ومحلل، ولكل أسانيده، والمهم في رأينا هو السياق الذي يتم فيه الغناء، والوسائل المتبعة، والأغراض المستهدفة، والكلمات المغناة .

وما هو فرض على الشم، فهو تبع للسمع والبصر، فكل ما حلّ استماعه والنظر إليه، جاز للمتعلم شمه، وقد روى عن عمر بن عبد العزيز أنه أتى بمسك، فأمسك عنه أنفه، فقيل له في ذلك، فقال: ” وهل يُنتَفَعُ منه إلا برائحته “؟ ويبدو أن المسك كان من بيت المال حتى تورّع الخليفة عن شمه (ص ١٢٢).

أما بالنسبة إلى ما هو فرض على اليدين والرجلين، فعليه أن لا يبسطهما الإنسان إلى محذور، ولا يقبضهما عن حق، ولذلك قيل: ما خطا العبد خطوة إلا كتبت حسنة أو سيئة.

وقد افترض المحاسبي أن القارئ يسأله: ما السبيل إلى العمل بذلك؟ فكان جوابه: ” لزوم منهاج الأئمة المتقين، والنظر في آداب المسترشدين لمعرفة الخَطُوء، والתיقظ بالمحاسبة والعمل بالإنصاف، والتحرز بكف الأذى، وبذل الفضل بترك المنة، وحسن السمات بغير حسد ... والتواضع للخلق بلا وحشة، والأنس بالذكر في الخلوة، وتفرغ القلب للخدمة، واجتماع الهم بالمراقبة، وطلب النجاة في طريق الاستقامة “ (رسالة المسترشدين، ص ١٢٧).

مراجع:

- ١- أحمد ضياء الدين حسين : الفكر التربوي عند الحارث المحاسبي، إربد (الأردن) رسالة ماجستير، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة اليرموك، ١٩٩١م.
- ٢- عبد الفتاح أبو غدة : رسالة المسترشدين للحارث المحاسبي، القاهرة، دار السلام، ١٩٨٣م، ط ٥
- ٣- المحاسبي :الرعاية لحقوق الله، تحقيق: عبد الحلیم محمود، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٤م.
- ٤- المحاسبي : شرف العقل وماهيته، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٦م.
- ٥- المحاسبي : العقل وفهم القرآن، تحقيق: حسين القوتلي، بيروت، دار الفكر، ١٩٧٨م، ط ٢.